العرب
الجمعة 2021/09/24
السنة 44 العدد 12189

النشأة الأولى للتجريد المغربي.. أصالة تتنفّس معاصرة

أربعة أسماء مغربية غيّرت الفهم التشكيلي الحديث في المنطقة العربية

لوحات الجيلالي الغرباوي استبعدت التوجيهات الأكاديمية شكلا ولونا

تجريدات أحمد الشرقاوي.. وشوم ورموز

الجيلالي الغرباوي وأحمد الشرقاوي وفريد بلكاهية ومحمد المليحي أربعة أسماء تشكيلية مغربية مثّلت ولا تزال رغم رحيلها، مرتكزات للفهم التشكيلي الحديث في المنطقة العربية، أفكارهم قادت إلى نظرة جديدة وأضفت على الفن التجريدي ملامح أخرى ليست كتلك القادمة من الغرب، رغم أنها لا تخفي تأثرها بالتجارب الغربية الحديثة، بل العديد منها اكتشف في المناطق الباردة وترعرع فيها، إلا أنها احتفظت بتكوينها الفني ونشأتها الأولى.

عدنان بشير معيتيق
فنان تشكيلي ليبي

تنوّعت الأفكار والرؤى الفنية عند الرباعي المغربي الراحل الجيلالي الغرباوي وأحمد الشرقاوي وفريد بلكاهية ومحمد المليحي بحسب تنوّع مصادر إلهامهم ومستوى ثقافتهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية، ولكنها اتكأت في جلها على موروثها ومفرداتها ومناخها ومزاجها وألوانها وخاماتها وأصباغها المحلية، ممّا صنع منها صوتا متفرّدا ولونا مختلفا في فن الرسم الحديث في المغرب والمنطقة العربية كلها.

لم تحدث قطيعة ثقافية في المغرب كما حدث عند بعض البلدان العربية الأخرى، وذلك إثر التحوّلات الكبرى التي غيّرت توجّههم الاقتصادي من مجتمعات ريفية زراعية بسيطة إلى مجتمعات منتجة للنفط بشكل سريع ومفاجئ.

تفرّد نوعي

فقدت هذه المجتمعات الكثير من العادات اليومية التي كان يُعتمد عليها في الواقع المعيش من صناعات تقليدية لعدم لزومها وجدوتها، ولترف الحياة الحديثة عند هذه المجتمعات، فالكثير من الصناع المهرة تركوا هذه الحرف والفنون من صناعة المنسوجات الصوفية والكليم والنحاسيات والفخار والخزف واتجهوا إلى التجارة وسوق رأسمال الحر والاعتماد على التوريد من الخارج بدلا من صناعتها محليا، فأصبحت هناك قطيعة في هذه المجتمعات كان لها الدور السلبي في تدني الذائقة الفنية العامة والخاصة.

انعكس كل ذلك بشكل خاص على المنتج الفني بخلاف المغرب الذي واصل مشوار الإنتاج المحلي في هذه الصناعات التقليدية كمصدر من مصادر الدخل القومي وإثراء الجانب السياحي للبلد، وكان أكثر تنوّعا وتعدّدا في الجانب الثقافي العربي الأمازيغي والأفريقي، فجات الأزياء التقليدية النسائية والرجالية متنوّعة الأشكال والموديلات، وباتت الصناعات الصوفية ثرية جدا بألوانها وأشكالها وتعدّد استخداماتها.

وشمل هذا التميّز أيضا الصناعات الجلدية التقليدية في معالجتها للألوان ودبغ الجلود بالطرق القديمة التي أضفت خصوصية على المغرب بين بلدان العالم كله، والفنون التشكيلية المنتجة في المغرب أصبحت لها سماتها التي تميّزها بفعل تفرّد موروثها الثقافي والفني.

نشأ في المغرب الجيل الأول من الفنانين وكانت أعمالهم تصنّف من الفن الفطري لعدم دراستهم الفنون في الأكاديميات الفنية الحديثة، ومن بينهم الفنان محمد بن علي الرباطي، مواليد العام 1861، والفنانة الشعيبية طلال، مواليد العام 1929 وغيرهما من هذا الجيل الذي أسّس فكرة قيام حركة تشكيلية مغربية.

بعد ذلك جاء جيل جديد كان قد درس في المدارس والمعاهد الفنية، وهو الجيل الثاني للفن التشكيلي المغربي، والذي كان له الدور الأكبر في ترسيخ فكرة الفن التشكيلي الحديث من بواكير تجارب شابة تعلّمت أغلبها في الغرب وتقلّدت مناصب في التدريس والإدارة بالمغرب في فترات سابقة.

ومن أبرز هذه التجارب تحضر تجربة الجيلاني الغرباوي وأحمد الشرقاوي وفريد بلكاهية ومحمد المليحي، والتي كان لها الأثر البالغ في تشكيل مفاهيم جديدة خصوصا للفن التجريدي العربي الحديث.

خصوصية مغربية

يؤكّد المؤرخون أن الجيلالي الغرباوي (1930–1971) هو أوّل من رسم اللوحة التجريدية، وكان ذلك في بداية خمسينات القرن الماضي، وتبعه أحمد الشرقاوي (1934–1967) بعد فترة قصيرة، أي قبل تجارب الفنانين العراقيين والمشارقة بشكل عام، لأن جماعة البعد الواحد في بغداد كانت قد تأسّست في بداية السبعينات من القرن الماضي من قبل الفنان العراقي شاكر حسن آل سعيد.

اقترب الفنان الغرباوي كثيرا من الموروث الشعبي المغربي وابتعد إلى أقصى مدى من التوجيهات الأكاديمية التي كانت تروّج لها المدارس الفنية في ذلك الوقت، فبتميّز مفرداته المستعملة في لوحاته أصبحت له خصوصية في خطابه التشكيلي التي جعلته متفرّدا حتى بين زملائه التشكيليين الغربيين في فرنسا.

وكما فعل الغرباوي، استبعد أحمد الشرقاوي الأكاديمية من مشروعه الفني، وكلاهما حفر في عمق الذاكرة التشكيلية المغربية والعربية بحداثة فنية وطزاجة غير مسبوقة في المنطقة كلها، حيث كانت لهما الريادة في الدخول إلى مناطق لم تطأها قدم فنان من المغرب قبلهم بل من البلدان المجاورة أيضا.

فريد بلكاهية استلهم ثيمة الشجرة برؤى معاصرة

محمد المليحي خطّ لوحاته بأمواج ملوّنة في تكرار لا يُملّ منه

تجريدات تعتمد على الأشكال الأولى في المعمار المغربي وزخارفه المتنوّعة في حيطانه وأبوابه والزليج الملوّن أو ما يعرف بـ"البلاط الفسيفسائي"، فنون مستلهمة من الإرث الإسلامي، خصوصا في شمال أفريقيا، وكان المغرب المكان الأكثر إبداعا وتنوّعا وثراء في مثل هذه الفنون، وتجسّدت في البيوت من الداخل والقصور والمساجد بإبداع في تقديمها وأشكالها المبتكرة، فهذا النوع من الفنون يحمل قيم تجريدية قد سبقت تنظيرات بيت موندريان الهندسية وغيره من التجريديين الأوروبيين، وكان للفنانين الروّاد المغاربة ومنهم الشرقاوي دور كبير في تطوير هذه الفنون والإضفاء عليها من الفكر الغربي الذي استوعبه هو ورفاقه الأوائل.

> تجارب الغرباوي والشرقاوي وبلكاهية والمليحي كان لها أثر بالغ في تشكيل مفاهيم جديدة لفن التجريد العربي الحديث

أما فريد بلكاهية (1934–2014) فتميّز الخطاب التشكيلي عنده بامتداد مساحاته الملونة ومفرداته المبتكرة، خاصة تلك التي استلهمت ثيمة الشجرة حسب رؤية معاصرة ومتكئة على الموروث المغربي الغني بالألوان والأشكال، انطلاقا من الزخارف المعمارية، مرورا بتشكيلات الحنة والوشم والكتابة والمدوّنات الشعبية المرسومة وصولا إلى الفسيفساء.

فتجربة الفنان الراحل اتخذت مكانا مرموقا في التشكيل المغربي الحديث لابتكاره أشكاله الخاصة واستعماله المواد وخاماته الأكثر خصوصية كالجلود والأصباغ المصنّعة محليا، ممّا أضفى طابع الأصالة على فنه مع أنفاس معاصرة، وفهم تشكيلي جديد من خلال تقديمها بحلة جديدة وصياغاته لأشكاله المرسومة والتي تتّخذ من خطابات الحداثة الغربية أسلوبا لها.

وتأثّر محمد المليحي الذي ولد في مدينة أصيلة المغربية في العام 1936 بمناخ المدينة النائمة على خد المحيط الأطلسي في بيوتها البيضاء وهي تعانق أفقا أزرق دون سقف، في تجربته أمواج ملوّنة في تكرار لا يُملّ بتعدّد التكوينات المبتكرة وتجاور الألوان في مناخات لونية متعدّدة ما بين المجموعات الشتوية الباردة إلى المتوهّجة في وضح الشمس بدرجات الألوان الملتهبة، تتغيّر حسب فصول الفنان المتعدّدة في لوحاته، كأنها طيات النفس العميقة المتحوّرة والمتبدلة بتبدّل أمزجة الإنسان المعاصر.

أفراحه وآماله وتطلعاته مفتوحة على المعنى لا يمكن تأويلها وردّها إلى أشكالها القريبة، بل هي تستدعي تعدّد القراءات، لأنها رسم لأمواج داخلية استقرت منذ الأزل في علاقة الإنسان بالبحر.

والفنان الراحل في العام 2020، هو أحد مؤسّسي "جماعة الدار البيضاء" مع فريد بلكاهية ومحمد شبعا، وكان مدرّسا في مدرسة الفنون الجميلة بالدار البيضاء ومصمّما لأغلفة الكتب والعديد من معلقات الملتقيات والمهرجانات الفنية.

المصرية غادة أمبارك تسرد الحكايات الشعبية في لوحات سريالية

القاهرة - يستمرّ حتى الثاني من أكتوبر القادم بقاعة الباب سليم بمتحف الفن المصري الحديث بدار الأوبرا المصرية بالقاهرة، معرض "لقاء" للفنانة التشكيلية المصرية غادة أمبارك، الذي شمل 35 لوحة صغيرة الحجم، وثلاث عشرة لوحة كبيرة استخدمت فيها الفنانة خامة الأكريليك على كانفاس وألوان أكواريل على ورق قطن.

وعن معرضها تقول أمبارك "بين صخب الحياة تأتي لحظة أمل لحظة سكون، حين تلتقي الأرواح المتآلفة منذ مئات العقود.. أرواح تآلفت والتأمت وتفرّقت لتأتي لحظة إحيائها من جديد، لحظة اللقاء فتسكن الجوارح ويسود الصمت وتعلو نغمات الأحاسيس والمشاعر والتمنّي، حيث يبدو أن العمر هو لحظة.. لقاء".

والمعرض هو السادس لأمبارك التي أقامت آخر معارضها تحت عنوان "الأحجية"، في ديسمبر 2020 بقاعة آدم حنين بمركز الهناجر للفنون بالقاهرة، تحت رعاية المخرج خالد جلال رئيس قطاع شؤون الإنتاج الثقافي.

وفي معرضها الجديد تواصل أمبارك ما دأبت الاشتغال عليه في معارضها السابقة، منطلقة من القصة القصيرة، الحكاية، وكيف أن لكلّ فرد حكاية أثّرت فيه خلال طفولته يتذكّرها من آن لآخر، سواء كانت تحمل تلك الحكاية جانبا مشرقا أو العكس.

وتشرح أمبارك ماهية تجربتها الفنية، قائلة "بدأت استرجع حكاياتي الصغيرة منذ كنت أعيش في الصعيد خلال طفولتي إلى أن التحقت بالمدرسة الثانوية والجامعة في القاهرة، ثم سافرت إلى اليابان وإندونيسيا وسنغافورة، حيث أصبحت لديّ حكايات جديدة بالطبع، ومن ثم صنعت كل منطقه لديّ حكايات متباينة، ومن هنا بدأت أحكي هذه الحكايات وأبرزها في صورة فن وتشكيل وتوزيع كتل بطريقة ألوان معينة".

وتستطرد "خرجت هذه الحكايات من داخلي دون ترتيب، حاولت استدعاء اللاوعي الكامن فيّ كي تخرج في صورة تشخيص وعلاقات، ثم بدأت في آلية التلوين وقرّرت التركيز على الحكاية، مع شريطة ألاّ أشغل فكري وفكر المُتلقي بالألوان الصاخبة التي تأخذ العين كوني أريد دخول المُتلقي لعمق الحكاية في العمل".

وتخصّصت الفنانة المصرية في رسم الشعبيات والوحدات الزخرفية من العصور المختلفة، زادها في ذلك معارفها ومكتسباتها الخاصة التي استلهمتها من سفراتها المتنوّعة، ما مكّنها من رسم لقطات حياتية مكوّنة من خطوط ووحدات زخرفية تعبّر فيها عن الحياة المثالية بين الرجل والمرأة وتصف فيها للرجل كيفية التعامل مع المرأة للرقي بالعالم وأملا في السلام.

وهي تتكئ في أعمالها على أساسات من الفكر والوعي والفلسفة والنضج والمعرفة، لذلك تبدو أعمال أمبارك تعبيريّة في المقام الأول، لأنها تعبّر وتصف وتتكلم فيها بالخط والدائرة، مع استلهام شفيف من المدرسة السريالية، كتعبيرة عن الروح في الجسد بعين الإنسان، باعتبار أن العين هي نافذة الروح للإنسانية. والمنجز الفني لدى أمبارك متنوّع وتتميّز لوحاتها ببساطة عناصرها والتي تحمل في داخلها معان كثيرة، منطلقها الحرية ومنتهاها أيضا.

وفي ذلك تقول "الفن حرية، حين تطلق لروحك العنان وتغيّب عقلك قليلا، وتسبح في خيالاتك دون قيود ولا حدود، هنا تبدأ في التعرّف على ذاتك ومحيطك.. كلنا مميّزون عن بعضنا البعض كبصمات الأصابع لا ينقصنا غير الثقة بالنفس واليقين بأن لكل منا أدواته الخاصة، فلا حاجة لنا للتقليد، لأنك لو فعلت هذا، فاعلم أنك مسجون في قالب ليس لك ولن تشعر بالراحة أبدا، ولن تبلغ غايتك نهائيا، فقط ابدأ في البحث عن ذاتك ولو حالفك الحظ وتراءت لك خباياها الثمينة، هنا يمكنك أن تشعر بالفخر والنجاح والارتياح".

وهنا تستحضر أمبارك كيفية إنجاز لوحاتها قائلة "من نفّذت لوحات معرضي السابق 'الأحجية' ومعرضي الحالي 'لقاء' هي ذكرياتي، توقّفت للحظة لأسترجع بعض الذكريات، وإذا بسيل من المشاعر ينهمر فوق بعضه البعض. في هذه اللحظة أطلق العنان لقلمي ليسرد لي بالخط ودون توقّف للنهاية حكاية تلو الأخرى في تواصل وتناغم والتحام، ممّا يولّد تحت يديّ عملا أو أعمالا تضجّ بما فيها من ألم وحزن وفرح ونشوة وخوف وأمان واستسلام وتنمرّ ونكران للذات".

غادة أمبارك

الفن حرية، حين تطلق لروحك العنان.. تبدأ في التعرّف على ذاتك

وهي تستند في ذلك كله على اللونين الأبيض والأسود، ثم تُدخل الألوان الأخرى على استحياء، موضّحة "لم أقم بعمل تجريد في المضمون والشكل، ولكن كان هناك تجريد في اللون ذاته، فوصلت الطريقة لمتلقين كثيرين وكيف أنني صنعت هذه السمفونية بلون واحد.. ليس هذا فحسب، ولكني عملت كذلك بالضغط، أي الحفر على الورق وليس تلوينه، وأصبح هناك مرتفع ومنخفض صنع ضوءا بمفرده".

وعن الغموض الذي تتّسم به بعض لوحاتها، تقول "مشكلة فهم اللوحة من وجهة نظري أرى أنها ليست مشكلة، لأن اللوحة لو كانت غامضة فهذا يدلّ على نجاح العمل الفني وأنه يحمل معان كثيرة يتناولها الجمهور كل بفكره وثقافته وخياله، وأحيانا يتصادف أنه يتماشى مع فكر الفنان وأحيانا لا، وهذا يزيد من قيمة العمل الفني ولا يقلّل منه على الإطلاق".

والفنانة غادة أمبارك، تخرّجت من كلية الفنون الجميلة بالزمالك، وسافرت إلى اليابان لمدة ثلاث سنوات، واندمجت في أنماط وأنواع مختلفة من الثقافات والفنون، أضافت إلى رصيدها الفكري والبصري، ثم أقامت معرضين في القاهرة عامي 1991 و1992، وفي العام 2011 سافرت إلى قلب سيناء لتعليم النساء البدويات فن تزيين منازلهنّ.

وفي العام 2017 أقامت معرضها الثالث "المهدّدة بالانقراض" في المدرسة الأميركية الدولية، وفي العام ذاته شاركت في معرض "الفن بلا حدود" والذي أقيم بمدينة روما في إيطاليا، وأيضا بينالي فلورنسا الدولي الحادي عشر بإيطاليا، قبل إقامة معرضها الرابع "عالآخر" الذي أقيم في المركز الثقافي الدبلوماسي بالزمالك في العام 2019، ثم معرضها الخامس "الأحجية" الذي احتضنه رواق آدم حنين بمركز الهناجر للفنون بالقاهرة في ديسمبر 2020.

لقطات حياتية مكوّنة من خطوط ووحدات زخرفية متشابكة